التفاضل

بين السور والآيات القرآنية

دكتور

محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطى

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

بكلية القرآن الكريم للقراءات وعلومها بطنطا

Scanned with CamScanner

مقدمة

الحمد لله وحده ، وأصلي وأسلم على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه ، وبعد:

فقد فجعني أستاذ جامعي مسلم في السابعة والخمسين من عمره حينما أبدى دهشته لوجود سورة في القرآن الكريم تسمى سورة الدخان ، ولهذا سألته: ألا تقرأ القرآن الكريم ؟ قال : بلى ، قلت كيف لم تمر على سورة الدخان ؟ قال : لأنني أقرأ طيلة عمري سورا وآيات معينة لأستفيد منها في أمور محددة ، كآية الكرسي كل ليلة لتحفظني من الشيطان ، وسورة الواقعة لتحفظني من الفقر ، وسورة الملك لتقيني من عذاب القبر ، وقرأت سورة يس عند موت أبي ، وكررتها عند موت أمي ، وقرأت سورة البقرة يوم عرسي ، وبالطبع أقرأ سورة الكهف كل يوم جمعة، قلت له : معنى ذلك أنك لم تمر أبدا على سور القرآن كلها ؟ قال : نعم ، هناك سور أعرف أسماءها فقط ولكني لم أقرأها أبدا ، وقد فاجأتني أنت اليوم بوجود سورة تسمى الدخان .

ساعتها أدركت الآثار السلبية الناجمة عن الإكثار من ذكر فضائل سورة بعينها أو آية بخصوصها ، وقررت دراسة هذه القضية ، فكان هذا البحث الذي جعلت عنوانه : التفاضل بين السور والآيات القرآنية.

وقد ضمنته مقدمة ، ثم العناصر الآتية : اهتمام العلماء بعلم فضائل القرآن ، وما صح من الأحاديث في فضائل القرآن ، سواء أكان في فضله على الجملة ، أم في سور بعينها ، أم آية بخصوصها ، واكتفيت بإيراد نماذج في ذلك مع ذكر أقوال العلماء فيها ، ثم تتبعت ثلاثة أقوال لهم في وقوع التفاضل بين سور القرآن الكريم وآياته ، وبينت في العنصر الأخير التوظيف الأمثل لهذه الأقوال ، بحيث يكون ذكرنا لفضائل القرآن الكريم ذا آثار إيجابية في علاقة المسلمين بهذا الكتاب العظيم ، ثم أتبعت ذلك بخاتمة بينت فيها أهم نتائج البحث ، ثم أوردت قائمة للمراجع التي اعتمدت عليها بعد الله عز وجل .

أسأله سبحانه أن يلهمنا الرشد والسداد وأن يتجاوز عن الخلل والتقصير.

Scanned with CamScanner

اهتمام العلماء بعلم فضائل القرآن الكريم :

فضائل القرآن من مباحث علوم القرآن المهمة ؛ لأنه يرغب في تلاوة كتاب الله تعالى ، ويحث على حفظه ، والارتباط الوثيق به ، ويبين فضله ، وما يحصل عليه قارئه من الثواب الجزيل .

وقد اهتم العلماء بهذا العلم اهتماماً بالغاً ، فأورده بعضهم ضمن مصنفه في علوم القرآن ، كالزركشي في برهانه ، والسيوطي في إتقانه ، وأفرده بعضهم بمصنف خاص ، كفضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام ، وفضائل القرآن لابن الضريس ، وفضائل القرآن لجعفر بن محمد بن الحسن الفرياني ، وفضائل القرآن لأحمد بن شعيب النسائي ، وفضائل القرآن لابن كثير.

ما صح من الأحاديث في فضائل القرآن الكريم :

صحت في فضائل القرآن الكريم أحاديث باعتبار الجملة ، وفي بعض السور بالتعيين ، وبعض الآيات بالخصوص.

وأمَّا الحديث المروي عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضيلة سُوره سورة سورة فحديث موضوع ؛ ولهذا خطأ ابن الصلاح كل من ذكره من المفسرين في تفاسيرهم ، وخفف الزركشي اللوم على من ذكروه بإسناد ، بخلاف من ذكره بغير إسناد وجزم به ، كالزمخشري في كشافه ؛ فإن خطأه أشد [1].

وقد أراد الوضاعون في فضائل القرآن الكريم أن يرغبوا الناس في قراءته، ويصرفوهم إلى الاشتغال به بدل الاشتغال عنه ، وابتغوا – جهلا وضعفا في الدين – المثوبة من الله تعالى على ذلك.

ذكر السيوطي عن عمار المرزوي أنه قيل لأبي عصمة نوح ابن أبي مريم: من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في فضائل القرآن

---

١ انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ٤٣٢ .

سورة سورة ، وليس عند أصحاب عكرمة هذا ؟ فقال : إني رأيت الناس قد أعرضوا عن القرآن ، واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي محمد بن إسحاق ، فوضعت هذه الأحاديث حسبة [٢].

والصحيح من الأحاديث الواردة في فضائل القرآن الكريم على ثلاثة أضرب:

الأول : ما ورد في فضله على الجملة .

والثاني : ما ورد في فضل سور بعينها.

والثالث : ما ورد في فضل آية بخصوصها .

وسأكتفي بذكر نماذج لذلك ، وهي على النحو الآتي :

أولا : ما صح في فضل القرآن على الجملة :

صحت في فضل القرآن الكريم على الجملة أحاديث كثيرة، منها ما يأتي:

(أ) قول الرسول صلى الله عليه وسلم : " ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة " [٣].

(ب) قوله صلى الله عليه وسلم : " خيركم من تعلم القرآن وعلمه" [٤].

(ج) قوله صلى الله عليه وسلم : " الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران " [٥].

---

٢ انظر : تدريب الراوي للسيوطي ١ / ٢٨٢ .

٣ أخرجه البخاري في فضائل القرآن ، باب كيف نزول الوحي ٤ / ١٩٠٥ (٤٦٩٦) .

٤ أخرجه البخاري في فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ٤/ ١٩١٩ (٤٧٣٩)

٥ أخرجه البخاري في التفسير ، باب تفسير سورة عبس ٤ / ١٨٨٢ (٤٦٥٣) ومسلم في صلاة المسافرين باب فضل الماهر بالقرآن ١ / ٥٤٩ (٧٩٨) واللفظ له .

Scanned with CamScanner

(د) قوله صلى الله عليه وسلم : " لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار ".[٦]

(هـ) قوله صلى الله عليه وسلم : " إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب " [٧].

ثانيا : ما صح في فضل بعض السور :

صحت أحاديث متعددة في فضل سور قرآنية بعينها ، منها ما يأتي :

(أ) ما صح في فضل سورة الفاتحة :

عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال : كنت أصلي في المسجد ، فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم أجبه ، فقلت : يا رسول الله ، إني كنت أصلي ، فقال : " ألم يقل الله (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم)[٨] ثم قال لي : " لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد " ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج ؛ قلت له : ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن ؟ قال : " الحمد لله رب العالمين ، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته " [٩].

وحاصل أقوال العلماء في سبب كون الفاتحة أعظم سورة في القرآن الكريم أنها اشتملت على جميع المقاصد القرآنية ، ولذلك سميت : أم القرآن ،

---

٦ أخرجه البخاري في التوحيد باب قول النبي صلى الله عليه وسلم رجل آتاه الله القرآن ٦ / ٢٧٣٧ (٧٠٩١) ومسلم في صلاة المسافرين ، باب فضل من يقوم بالقرآن ١ / ٥٥٨ (٨١٥)

٧ أخرجه الترمذي في باب (١٨) ٥ / ١٧٧ (٢٩١٣) وقال : هذا حديث حسن صحيح.

٨ سورة الأنفال : ٢٤ .

٩ أخرجه البخاري في التفسير ، باب ما جاء في فاتحة الكتاب ٤ / ١٦٢٣ (٤٢٠٤) .

Scanned with CamScanner

ولأنها مشتملة على خلاصة ما اشتمل عليه القرآن ، وهو مشتمل على خلاصة ما اشتملت عليه جميع الكتب المنزلة[١٠].

وبيان اشتمالها على ما في القرآن الكريم قرره الزمخشري بأنها جاءت مشتملة على الثناء على الله تعالى بما هو أهله ، وعلى التعبد بالأمر والنهي ، وعلى الوعد والوعيد ، وآيات القرآن لا تخلو عن أحد هذه الأمور[١١].

وقرره الفخر الرازي من وجه آخر مفاده أن المقصود من كل القرآن تقرير أمور أربعة : الإلهيات والمعاد والنبوات وإثبات القضاء والقدر لله عز وجل ، فقوله : (الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم) يدل على الإلهيات ، وقوله : (مالك يوم الدين) يدل على المعاد ، وقوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) يدل على نفي الجبر والقدر وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره ، وقوله : (اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين) يدل أيضا على إثبات قضاء الله تعالى وقدره ، وعلى النبوات[١٢].

بينما قرره ابن القيم بأن سر الخلق والأمر ، والكتب والشرائع ، والثواب والعقاب ، ينتهي إلى الكلمتين اللتين تضمنتهما سورة الفاتحة ، وهما (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) حتى قيل : أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب ، جمع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن ، وجمع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن ، وجمع معاني القرآن في المفصل ، وجمع معاني المفصل في الفاتحة في (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وهما الكلمتان المقسومتان بين الله تعالى وبين عبده نصفين ، فنصفهما له تعالى ، وهو إياك نعبد ، ونصفهما لعبده ، وهو إياك نستعين[١٣].

---

١٠ انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢ /٤١٩ ، ٤٢٠ .

١١ انظر : الكشاف للزمخشري ١ / ٤٥ .

١٢ انظر : التفسير الكبير للفخر الرازي ١ / ١٤٤ .

١٣ انظر : مدارج السالكين لابن القيم ١ / ٧٤ .

Scanned with CamScanner

وبناءً على ذلك يكون المعنى الصحيح للحديث هو ما ذكره الخطابي بقوله: " في قوله صلى الله عليه وسلم " هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته " دلالة على أن الفاتحة هي القرآن العظيم ، وأن الواو ليست بالعاطفة التي تفصل بين الشيئين ، وإنَّما هي التي تجيء بمعنى التفصيل كقوله : (فاكهة ونخل ورمان)[١٤] ، وقوله : (وملائكته ورسله وجبريل وميكال)[١٥] "[١٦].

وإنَّما عطف القرآن العظيم على السبع المثاني مع أن المراد بهما واحد وهو الفاتحة ؛ لما عُلم في اللغة العربيَّة من أن الشيء الواحد إذا ذُكر بصفتين مختلفتين جاز عطف إحداهما على الأخرى تنزيلاً لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات ، ومنه قوله تعالى : (سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوي . والذي قدر فهدى . والذي أخرج المرعى)[١٧].

(ب) ما صح في فضل سورة الإخلاص :

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلا سمع رجلاً يقرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ يرددها ، فلما أصبح جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، وكأن الرجل يتقالها ، فقال صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن "[١٨].

وفي حديث آخر أخرجه مسلم قال صلى الله عليه وسلم : " أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن ؟ " قالوا : وكيف يقرأ ثلث القرآن ؟ قال : " قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن "[١٩].

---

١٤ سورة الرحمن : ٦٨ .

١٥ سورة البقرة : ٩٨ .

١٦ انظر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر ٨/١٥٩ .

١٧ سورة الأعلى : ١ – ٤ ، وانظر : أضواء البيان للشنقيطي ٢ / ٣١٥ .

١٨ أخرجه البخاري في فضائل القرآن ، باب فضل قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ٤ / ١٩١٥ (٤٧٢٦).

١٩ أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب فضل قراءة قل هو الله أحد ١/ ٥٥٦ (٨١٠).

وفي حديث آخر عنده أيضا قال صلى الله عليه وسلم : " احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن " فحشد من حشد ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم فقرأ قل هو الله أحد [٢٠].

وقد علل بعض العلماء سبب كونها تعدل ثلث القرآن بأن الله عز وجل جعل القرآن ثلاثة أجزاء [٢١]:

الأول : القصص والأخبار .

والثاني : الشرائع والحلال والحرام .

والثالث : صفاته تبارك اسمه .

وفي سورة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ صفاته ؛ فلذلك تعدل ثلث القرآن .

واستندوا إلى قوله صلى الله عليه وسلم لأصحابه عليهم الرضوان : " إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء ، فجعل قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ جزءاً من أجزاء القرآن "[٢٢].

أما الزركشي فقرر أن أحسن ما قيل في كونها تعدل ثلث القرآن الكريم أنه قسمان : خبر وإنشاء ، والخبر قسمان ، خبر عن الخالق عز وجل ، وخبر عن المخلوق ، فهذه ثلاثة ، وسورة الإخلاص ، أخلصت الخبر عن الخالق ، فهي بهذا الاعتبار ثلث القرآن الكريم[٢٣].

بينما استحسن ابن تيمية ما أجاب به أبو العباس بن سريج حين سئل عن ذلك؛ فقال : أنزل القرآن الكريم على ثلاثة أقسام : ثلث منها الأحكام ، وثلث

---

٢٠ أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ، باب فضل قراءة قل هو الله أحد ١ / ٥٥٧ (٨١٢).

٢١ انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ٦ / ٩٤ ، ٩٥ .

٢٢ أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ، باب : فضل قراءة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١ / ٥٥٦ (٨١١).

٢٣ البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ٤٤٦ .

منها وعد ووعيد ، وثلث منها الأسماء والصفات ، وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات ، وليس في القرآن سورة هي وصف محض للرحمن سواها[٢٤] .

ولهذا يحب الله عز وجل من يحبها ، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً على سرية ، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : " سلوه لأي شيء يصنع ذلك ؟ " فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال صلى الله عليه وسلم : " أخبروه أن الله يحبه "[٢٥] .

ثالثا : ما صح في فضل آية بعينها :

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا أبا المنذر ، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ " قلت الله ورسوله أعلم ، قال : " يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ " قلت: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم)[٢٦] فضرب بصدري وقال : " والله ليهنك العلم أبا المنذر "[٢٧] .

وأخرج الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سيدة آي القرآن آية الكرسي "[٢٨] .

---

٢٤ انظر : كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير ١٧ / ١٠٣ .

٢٥ أخرجه البخاري في التوحيد ، باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ٦ / ٢٦٨٦ (٦٩٤٠) ومسلم في صلاة المسافرين ، باب فضل قراءة قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١ / ٥٥٧ (٨١٣) .

٢٦ سورة البقرة : ٢٥٥ .

٢٧ أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي ١ / ٥٥٦ (٨١٠) وأحمد في المسند ٥ / ١٤١ (٢١٣١٥) .

٢٨ أخرجه الحاكم في المستدرك ٢ / ٢٨٦ (٣٠٣٠) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

قال العلماء : إنما تميزت آية الكرسي بكونها أعظم لما جمعت من أصول الأسماء والصفات من الإلهية والوحدانية والحياة والعلم والملك والقدرة والإرادة ، وهذه السبعة أصول الأسماء والصفات[٢٩].

وقال الغزالي " إنما كانت آية الكرسي سيدة الآيات ؛ لأنها اشتملت على ذات الله وصفاته وأفعاله فقط ليس فيها غير ذلك ، ومعرفة ذلك هي المقصد الأقصى في العلوم ، وما عداه تابع له ، والسيد اسم للمتبوع المقدم "[٣٠].

وإنما قال صلى الله عليه وسلم في سورة الفاتحة " أفضل " وفي آية الكرسي " سيدة " لسر بالغ الدقة ، وهو أن الجامع بين فنون الفضل وأنواعها الكثيرة يسمى أفضل ، فإن الفضل هو الزيادة ، والأفضل هو الأزيد ، وأما السؤدد فهو رسوخ معنى الشرف الذي يقتضي الاستتباع ويأبى التبعية ، وسورة الفاتحة تتضمن التنبيه على معان كثيرة ومعارف مختلفة ، ويكفي أنها اشتملت على كل ما في القرآن الكريم من علوم ومعارف ؛ فكانت أفضل من هذه الناحية ، أما آية الكرسي فاشتملت على المعرفة العظمى التي هي المقصودة المتبوعة التي يتبعها سائر المعارف ؛ فكان اسم السيد بها أليق[٣١].

ودفع بعض العلماء توهم التعارض بين تفضيل الفاتحة وتفضيل آية الكرسي بأن تلك باعتبار السور ، وهذه باعتبار الآيات[٣٢].

بينما جعل ابن العربي سورة الإخلاص أفضل من آية الكرسي من وجهين في غاية الحسن والنفاسة :[٣٣]

---

٢٩ انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ٦ / ٩٤ .

٣٠ جواهر القرآن للغزالي ص ٧٣ بتصرف .

٣١ انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢ / ٤٢٣ .

٣٢ انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ٤٣٩ .

٣٣ انظر : المصدر السابق ١ / ٤٤٢ .

Scanned with CamScanner

الأول: أنها سورة وهذه آية ، فالسورة أعظم من الآية ؛ لأنه وقع التحـــدي بها، فهي أفضل من الآية التي لم يتحد بها .

والثاني : أن سورة الإخلاص اقتضت التوحيد في خمسة عشـــر حرفـــا ، وآية الكرسي اقتضت التوحيد في خمسين حرفا ، فظهرت القدرة في الإعجـــاز بوضع معنى معبر عنه بخمسين حرفا ، ثم يعبر عنه بخمسة عشر حرفا فقط.

التفاضل بين السور والآيات القرآنية :

بسبب الأحاديث الواردة في تفضيل سورة على أخرى أو آية على نظيرتها اختلف العلماء في وقوع التفاضل بين سور القرآن وآياته على ثلاثة أقوال:

القول الأول : يستحسن عدم الخوض في مسألة تفضيل سورة على سورة أو آية على آية في القرآن الكريم طلبا للسلامة .

وأبرز من صرح بذلك ابن عبد البر حيث قال : " السكوت في هذه المسألة وما كان مثلها أفضل من الكلام فيها وأسلم " .[٣٤]

وقال أيضا : "ونحن نقول بما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم ولا نعدوه ، ونكل ما جهلنا من معناه إليه ، فبه علمنا ما علمنا ، وهو المبين عن الله مراده ، والقرآن عندنا مع هذا كله كلام الله وصفة من صفاته ليس بمخلوق ، ولا ندري لم تعدل ثلث القرآن- يقصد سورة الإخلاص - والله يتفضل بما يشاء على عباده"[٣٥].

واستحسن ابن حنبل أيضا هذا الاتجاه ؛ بدليل قول إسحاق بن منصور : قلت لأحمد بن حنبل : حديث النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن ، فلم يقم لي على أمر بين[٣٦].

---

٣٤ الاستذكار لابن عبد البر ٢ / ٥١٢ ، وقد خالف في موضع آخر ما قرره هنـــا حيـــث رأى عدم جواز تفضيل سورة على سورة أو آية على آية ، وسيتجلى ذلك بعد قليل .

٣٥ التمهيد لابن عبد البر ١٩ / ٢٣١ .

٣٦ انظر : المصدر السابق ١٩ / ٢٣٢ .

Scanned with CamScanner

القول الثاني : أنه لا ينبغي أن نفضل سورة على سورة أو آية على آية في القرآن الكريم ، وهو قول أبي الحسن الأشعري ، وأبي بكر الباقلاني ، وأبي حاتم بن حبان ، وابن عبد البر ، والقاضي شمس الدين الخويى ، وروي معنـــاه عن مالك بن أنس ، ووافقهم عليه بعض أئمة التفسير كابن جرير وغيره.

قال يحيى بن يحيى : تفضيل بعض القرآن على بعض خطأ ، وكذلك كره مالك أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها[٣٧].

واستندوا إلى ما يأتي :

أولا : أن القرآن الكريم كله كلام الله تعالى وصفة من صفاته ، ولو قلنـــا بأن بعضه أفضل من بعض ؛ للزم من ذلك دخول النقص في المفضول منـــه ، وكلامه تعالى حقيقة واحدة لا نقص فيها[٣٨].

قال ابن جرير : " وغير جائز أن يكون من القرآن شيء خير من شيء ؛ لأن جميعه كلام الله ، ولا يجوز في صفات الله تعالى ذكره أن يقـــال بعضـــها أفضل من بعض ، وبعضها خير من بعض "[٣٩].

وقال الجصاص : " غير جائز أن يقال إن بعض القرآن خير من بعض في معنى التلاوة والنظم إذ جميعه معجز كلام الله "[٤٠].

واعتبر الحارث المحاسبي من يقول بأفضلية شيء على شيء في القرآن الكريم كافرا ؛ لأنه ازدرى كلام الله عز وجل وزعم أنه منقوص دني[٤١].

---

٣٧ انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١ / ١٠٩ .

٣٨ انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ٤٣٨ .

٣٩ جامع البيان للطبري ١ / ٤٨٠ ، ٤٨١ .

٤٠ أحكام القرآن للجصاص ١ / ٧٣ .

٤١ فهم القرآن للمحاسبي ص ٢٥٣ .

وهذا الحكم ينطبق فقط على من تحققت فيه العلة الذي ذكرها المحاسبي ، وهي ازدراء كلام الله تعالى ، والزعم أنه منقوص دني .

ثانيا : أن التفضيل الذي يشهد له ظاهر الأحاديث يكون في الثواب ، وليس فيما يعطي الله تعالى عبده من الثواب على عمل يعمله ما يدل على فضل ذلك العمل في نفسه ، بل هو فضله عز وجل يؤتيه من يشاء من عباده على ما يشاء من عباداته تفضلاً منه على من يشاء منهم بمحض مشيئته ، لا لاختصاص ذلك الكلام بوصف امتاز به عن الآخر [٤٢] .

قال ابن حبان في حديث أفضلية الفاتحة: " إن الله لا يعطي لقارئ التوارة والإنجيل من الثواب مثل ما يعطي لقارئ أم القرآن ، إذ الله بفضله فضل هذه الأمة على غيرها من الأمم وأعطاها من الفضل على قراءة كلامه أكثر مما أعطى غيرها من الفضل على قراءة كلامه ، وقوله (أعظم سورة) أراد به في الأجر ، لا أن بعض القرآن أفضل من بعض "[٤٣] .

وقال ابن التين : " معناه أن ثوابها أعظم من غيرها " [٤٤] .

واختار النووي جواز قول هذه الآية أو السورة أعظم أو أفضل بمعنى أن الثواب المتعلق بها أكثر [٤٥] .

كما قرر أكثر المفسرين أن خيرية آية على آية في قول الله عز وجل : (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) [٤٦] ، يراد بها الخيرية

---

٤٢ انظر : الاستذكار لابن عبد البر ٢ / ٥١٢ ، وكتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية ١٧ / ١٧٢ .

٤٣ البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ٤٣٨ .

٤٤ انظر : الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢ / ٤١٩ .

٤٥ انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ٦ / ٩٤ .

٤٦ سورة البقرة : ١٠٦ .

لعباده المؤمنين التالين لها والعاملين بها ، إمَّا بتخفيف عنهم وإمَّا بشفاء صدورهم ، لا أنها في ذاتها أفضل من غيرها ، فليس هو تفضيلا لنفس الكلام بل لمتعلقه[٤٧] .

ثالثا : أن المقصود بتفضيل شيء على شيء في القرآن الكريم أنه في موضعه له حسن ولطف ، وذاك في موضعه له حسن ولطف ، وهذا الحسن في موضعه أكمل من ذاك لو وضع في نفس الموضع ، فمن قال : إن (قل هو الله أحد) أفضل من (تبت يدا أبي لهب وتب) يجعل المقابلة بين ذكر الله عز وجل وذكر أبي لهب ، وبين التوحيد والدعاء على الكافرين ، وذلك غير صحيح ، بل ينبغي أن يقال : (تبت يدا أبي لهب وتب) دعاء على أبي لهب بالخسران ، فهل توجد عبارة للدعاء بالخسران أحسن من هذه ، وكذلك لا توجد عبارة تدل على وحدانية الله تعالى أبلغ من (قل هو الله أحد) ، فالعاقل الفطن إذا نظر إلى (تبت يدا أبي لهب وتب) في باب الدعاء بالخسران ، ونظر إلى (قل هو الله أحد) في باب التوحيد لا يمكنه أن يقول إن أحدهما أفضل من الآخر[٤٨] .

ولهذا قال الفخر الرازي في تفسيره لقول الله تعالى : (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها)[٤٩] " فإن قيل لو كان الثاني أصلح من الأول لكان الأول ناقص الصلاح ، فكيف أمر الله به ؟ قلنا : الأول أصلح من الثاني بالنسبة إلى الوقت الأول ، والثاني بالعكس منه "[٥٠] .

فالخيرية عنده للوقت الذي تنزلت فيه الآية الناسخة، وليست خيرية لذاتها

---

٤٧ انظر : جامع البيان للطبري ١ / ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٣ / ٢١٠ ، وتفسير البيضاوي ١ / ٣٧٨ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ١٥١ .

٤٨ البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ٤٣٩ ، ٤٤٠ .

٤٩ سورة البقرة : ١٠٦ .

٥٠ التفسير الكبير للفخر الرازي ٣ / ٢١٠ .

على ذات الآية المنسوخة .

القول الثالث : أن بعض القرآن أفضل من بعض ، وهذا يرجع لذات اللفظ ، وأن ما تضمنته آية الكرسي وسورة الإخلاص وما كان مثلهما من الدلالات على وحدانيته تعالى وصفاته ليس موجودا مثلا في سورة المسد ، وما كان مثلها ، فالتفضيل إنما هو بالمعاني العجيبة وكثرتها ، قال القرطبي : وهذا هو الحق [٥١] .

وهو القول المأثور عن السلف ، والذي عليه أئمة الفقهاء من الطوائف الأربعة وغيرهم ، كأبي المظفر منصور بن محمد السمعاني الشافعي ، وأبي يعلى من أصحاب أحمد ، وإسحاق بن راهويه ، والعز بن عبد السلام ، وأبي بكر بن العربي ، والغزالي ، وابن الحصار ، وغيرهم من العلماء والمتكلمين، وكلام القائلين بذلك كثير منتشر في كتب كثيرة [٥٢] .

قال العز بن عبد السلام : " كلام الله في الله أفضل من كلام الله في غيره ، فقل هو الله أحد أفضل من تبت يدا أبي لهب وتب " [٥٣] .

وإن قيل : إن القول بأن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن لما تضمنته من التوحيد والإخلاص لو كان صحيحا ؛ لكانت كل آية في القرآن الكريم تضمنت ذلك يحكم لها بهذا الحكم.

فالجواب كما قال ابن عبد البر بأن هذا قياس لا يقدم عليه أحد من العلماء ، وكلهم يأباه [٥٤] .

---

٥١ انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١ / ١١٠ .

٥٢ انظر : كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير ١٧ / ١٣ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١ / ١١٠.

٥٣ البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ٤٣٩ .

٥٤ انظر : التمهيد لابن عبد البر ١٩ / ٢٣١ .

وهو جواب حسن ، ولكن ينبغي تقويته بذكر أقوال العلماء في سر كون قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن ، والتي سبق ذكرها فيما ورد في فضل السورة .

وقد تعجب ابن الحصّار كل العجب ممن يذكر الاختلاف في تفضيل شيء على شيء في القرآن رغم النصوص الواردة بالتفضيل[٥٥].

وقال الغزالي : " نور البصيرة إن كان لا يرشدك إلى الفرق بين آية الكرسي وآية المداينات ، وبين سورة الإخلاص وسورة تبت ، وترتاع على اعتقاد الفرق نفسك الخوارة المستغرقة بالتقليد ، فقلد صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ، فقد وردت عنه أخبار في تخصيص بعض السور والآيات بالفضل "[٥٦].

وقال الحليمي : " التفضيل يرجع على أشياء[٥٧]:

أحدها : أن يكون العمل بآية أولى وأعود على الناس من العمل بأخرى ، وعلى هذا يقال : آيات الأمر والنهي والوعد والوعيد خير من آيات القصص ؛ لأنها إنما أريد بها تأكيد الأمر والنهي والإنذار والتبشير ، ولا غنى بالناس عن هذه الأمور ، وقد يستغنون عن القصص ، فكان ما هو أعود عليهم وانفع لهم مما يجري مجرى الأصول خيرا لهم مما يجعل تبعا لما لابد منه .

الثاني : أن يقال الآيات التي تشتمل على تعديد أسماء الله تعالى ، وبيان صفاته، والدلالة على عظمته أفضل ، بمعنى أن مخبراتها أسني وأجل قدرا .

الثالث : أن يقال سورة خير من سورة أو آية خير من آية بمعنى أن القارئ يتعجل له بقراءتها فائدة سوى الثواب الآجل ، ويتأدى منه بتلاوتها عبادة ، كقراءة آية الكرسي والإخلاص والمعوذتين ، فإن قارئها يتعجل بقراءتها

---

٥٥ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/٤١٨ .

٥٦ الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢/ ٤١٧ ، ٤١٨ .

٥٧ المصدر السابق ٢/ ٤١٨ ، ٤١٩ بتصرف .

Scanned with CamScanner

الاحتراز مما يخشى ، والاعتصام بالله ، ويتأدى بتلاوتها عبادته تعالى، لما فيها من ذكره بالصفات العلا على سبيل الاعتقاد لها ، وسكون النفس إلى فضل ذلك بالذكر وبركته .

وتقرير ذلك أن يقال : إن القرآن كلام الله تعالى، وكلامه لا نهاية له ، كما قال سبحانه : (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا)[٥٨] .

ومن كلماته تعالى : كتبه المنزلة ، كالتوراة ، والإنجيل ، والقرآن ، وكلماته التي يخلق بها الخلق ، وكلماته التي كلّم بها آدم ، والتي كلّم بها موسى ، والتي كلّم بها محمداً صلى الله عليه وسلم ، وكلماته التي يكلم بها عباده في المحشر ، وفي الجنّة ، وكلماته التي يخاطب بها أهل النّار توبيخاً وتقريعاً لهم ، وغير ذلك من كلامه عز وجل .

فكلامه تعالى متبعّضٌ متجزئ ، فالتوراة بعض كلامه وجزء منه ، والإنجيل كذلك، والقرآن كذلك، والقرآنُ أبعاضٌ وأجزاءٌ وسورٌ وآياتٌ وكلماتٌ.

وجميع هذا من المسلّمات المعلومة لدى الكافة ، دلّ عليها الحس والعقل والشرع، وهي أجلى من أن تحتاج إلى ضرب الأمثلة وسياق البراهين .

وهذا الكلام الذي هو أجزاءٌ وأبعاضٌ ، بعضه أفضل من بعض ، وليس ذلك من جهة المتكلم به وهو الله عز وجل ، وإنّما هو من جهة ما تضمن من المعاني العظيمة ، فإن كلام الله المتضمن للتوحيد والدعوة إليه ، أفضل من كلامه المتضمن ذكر الحدود والقصاص ونحو ذلك ، وما يخبر به عن نفسه وصفاته أعظمُ ممّا يخبر به عن بعض خلقه ، وذلك لشرف الأول على الثاني .

وقد استند أصحاب هذا القول إلى ما يأتي :

---

٥٨ سورة الكهف : ١٠٩ .

أولا : اشتمال القرآن الكريم على أكثر من آية تصرح بتفضيله على غيره من كلام الله عز وجل ، كالتوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية ، وقد أجمعت الأمة كلها على ذلك ، ولم يقل أحد يعتد بقوله إن الجميع كلام الله ؛ فلا يفضل القرآن على غيره[٥٩] .

قال تعالى : (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه)[٦٠] .

فقوله (لما بين يديه من الكتاب) يقصد به كل كتاب نزل سوى القرآن ، وقوله (مهيمنا) أي رقيبا وشاهدا وأمينا على هذه الكتب ، وإنما كان كذلك ؛ لأنه الكتاب الذي لا يصير منسوخا البتة ، ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف ، ولأنه يشهد لها بالصحة والثبات ، ويقرر أصول شرائعها ، وما يتأبد من فروعها ، ويعين أحكامها المنسوخة ؛ لأنه خاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها ، ولهذا تكفل الله تعالى بحفظه فقال : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[٦١] .

ثانيا : ظواهر الأحاديث الصحيحة التي تدل على تفضيل سورة على سورة أو آية على آية ، وقد أوردت بعضها في مطلع هذا البحث .

ولهذا قال الزركشي تعقيبا على القول بأن التفضيل يكون في الثواب : " وفيه بعد عن ظاهر الحديث "[٦٢] .

ورد ابن عقيل القول بأن قراءة قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن الكريم في

---

٥٩ انظر : كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير ١٧ / ١٨ .

٦٠ سورة المائدة : ٤٨ .

٦١ سورة الحجر : ٩ ، وانظر : المحرر الوجيز لابن عطية ٢ / ١٩٩ ، ٢٠٠ ، والتفسير الكبير للفخر الرازي ١٢ / ١٠ ، ١١ ، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢ / ٦٦ ، وتفسير أبي السعود ٣ / ٤٥ .

٦٢ البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ٤٤٥ .

الأجر بقوله : " لا يجوز أن يكون المعنى فله أجر ثلث القرآن لقوله صلى الله عليه سلم : من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات "[٦٣].

قال إسحاق بن ر اهويه : " ليس المراد أن من قرأها ثلاث مرات كمن قرأ القرآن جميعه ، هذا لا يستقيم ولو قرأها مائتي مرة "[٦٤].

ثالثا : أنه ليس في الكتاب والسنة نص يمنع تفضيل بعض كلام الله عز وجل على بعض ، بل ولا يمنع تفاضل صفاته تعالى ، بل ولا نقل هذا النفي عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان[٦٥].

ثم فند أصحاب هذا القول أدلة المانعين للتفضيل على النحو التالي :

أولا : قولهم إن القرآن كلام الله تعالى ، وكلامه صفة من صفاته ، ولا يدخل التفاضل فيها لدخول النقص في المفضول منها مبني على اعتقادهم أن القول بأن أفضلية بعض الصفات تقتضي وصف المفضول بالنقص ، وهذا خطأ فادح ؛ لأن النصوص الشرعية تدل على أن بعض أسمائه وصفاته وأفعاله عز وجل أفضل من بعض دون أن تشير من قريب أو بعيد إلى وجود أدنى نقص في المفضول .

ومن هذه النصوص ما يأتي :

(أ) أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى

---

٦٣ انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي ١ / ٤٤٥ ، ونص الحديث عند الترمذي " من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف " أخرجه في فضائل القرآن ، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ٥ / ١٧٥ (٢٩١٠) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

٦٤ انظر : الإتقان في علوم القرآن ٢ / ٤٢٤ .

٦٥ انظر : كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير ١ / ٧٨ ، ٧٩ .

الله عليه وسلم قال : " لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه : إن رحمتي سبقت غضبي " وفي رواية مسلم : " إن رحمتي تغلب غضبي "[٦٦] .

والمراد بالغلبة وبالسبق كثرة الرحمة وشمولها ، وأنها غلبت الغضب بكثرة آثارها ، بدليل أن قسط الخلق منها أكثر من قسطهم من الغضب[٦٧] .

" فوصف رحمته بأنها تغلب وتسبق غضبه ، وهذا يدل على فضل رحمته على غضبه من جهة سبقها وغلبتها "[٦٨] .

(ب) أخرج الترمذي والحاكم واللفظ له عن عبد الله بن بريدة الأسلمي عن أبيه: أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول : اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلاَّ أنت الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دُعي به أجاب "[٦٩] .

قال الطيبي " " فيه دلالة على أن لله تعالى اسما أعظم إذا دعي به أجاب .... وفيه حجة على من قال : كل اسم ذكر بإخلاص تام مع الإعراض عما سواه هو الاسم الأعظم ، إذ لا شرف للحروف "[٧٠] .

---

٦٦ أخرجه البخاري في التوحيد ، باب ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ٦ / ٢٧١٢ (٧٠١٥) ومسلم في التوبة ، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ٤/٢١٠٧ (٢٧٥١) .

٦٧ انظر : الديباج على مسلم للسيوطي ٦ / ٩٧ ، وفيض القدير للمناوي ٢ / ٢٥٩ .

٦٨ كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية ١٧ / ٩١ .

٦٩ أخرجه الحاكم في مستدركه ١ / ٦٨٣ (١٨٥٨) وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، وله شاهد صحيح على شرط مسلم ، والترمذي في الدعوات ، باب : جامع الدعوات ٥ / ٥١٥ (٤٣٧٥) وقال: هذا حديث حسن غريب .

٧٠ تحفة الأحوذي ٩ / ٣١٣ .

Scanned with CamScanner

(ج) أخرج مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت : فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة من الفراش ، فالتمسته ، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد، وهما منصوبتان ، وهو يقول : " اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك "[٧١].

ومعلوم أن المستعاذ به أفضل من المستعاذ منه ، فقد استعاذ برضاه تعالى من سخطه ، وبمعافاته من عقوبته ، وأمّا استعاذته به منه فلابد أن تكون باعتبار جهتين : يستعيذ به باعتبار تلك الجهة ، ومنه باعتبار تلك الجهة ، ليتغاير المستعاذ به والمستعاذ منه ، إذ أن المستعاذ منه مخوف مرهوب منه ، والمستعاذ به مدعو مستجار به ملتجأ إليه ، والجهة الواحدة لا تكون مطلوبة ومهروباً منها في آن واحد ، لكن باعتبار جهتين تصح[٧٢].

ثانيا : قولهم إن الخيرية في قوله تعالى : (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها)[٧٣] يراد بها الخيرية لعباده المؤمنين التالين لها والعاملين بها، لا أنها في ذاتها أفضل من غيرها **يحتج به عليهم** ؛ لأن كون الثواب على أحد القولين أو الفعلين أكثر منه على الثاني إنما كان لأنه في نفسه أفضل ، كما سئل النبي صلى الله عليه وسلم غير مرة أي العمل أفضل ؟ فأجاب بتفضيل عمل على عمل ، وذلك مستلزم لرجحان ثواب هذا على ذاك ، وأما رجحان الثواب مع تماثل العملين فمخالف للشرع والعقل ، وكذلك الكلام لا يمكن أن يتماثل مع

---

٧١ أخرجه مسلم في الصلاة ، باب ما يقال في لركوع والسجود ١ / ٣٥٢ (٤٨٦) وأبو داود في الصلاة ، باب الدعاء في الصلاة ١/٢٣٢ (٨٧٩) والترمذي في الدعوات باب (٧٦) وأحمد في المسند ٦ / ٥٨ (٢٤٣٥٧) .

٧٢ كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية ١٧ / ٩١ ، ٩٢ بتصرف .

٧٣ سورة البقرة : ١٠٦ .

رجحان ثواب بعضه على البعض الآخر [٧٤].

ولهذا قال الألوسي في تفسيره لهذا النص القرآني الكريم : " والخيرية أعم من أن تكون في النفع فقط ، أو في الثواب فقط ، أو في كليهما " [٧٥].

وبناء على ذلك يكون قول القائل : إنه ليس بعض ذلك خيراً من بعض بل بعضه أكثر ثواباً ، ردا لخبر الله الصريح (نأت بخير منها أو مثلها) ولو كان الجميع متماثلاً في نفسه ؛ لا امتنع أن يكون فيه شيء خيراً من شيء ، وكون معنى الخير أكثر ثواباً مع كونه متماثلاً في نفسه أمر لا يدل عليه اللفظ حقيقة ولا مجازاً ، فلا يجوز حمله عليه ، فإنه لا يُعرف قط أن يقال : هذا خير من هذا وأفضل من هذا مع تساوي الذاتين بصفاتهما من كل وجه ، بل لابُدّ مع إطلاق هذه العبارة من التفاضل ولو ببعض الصفات ، فأمّا إذا قدر أن مختاراً جعل لأحدهما مع التماثل ما ليس للآخر مع استوائهما بصفاتهما من كل وجه ، فهذا لا يعقل وجوده ، ولو عقل لم يقل إن هذا خير من هذا أو أفضل لأمر لا يتصف به أحدهما البتة ، وأيضاً فقد صرح الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الفاتحة أفضل سور القرآن الكريم ، فمن قال إن كل ما نزل من كلام الله عز

---

٧٤ انظر : كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية ١٧ / ١٦٩ ، ولا يقدح في ذلك جمع العلماء بين الأحاديث التي اختلفت فيها إجاباته صلى الله عليه وسلم على سؤال أي العمل أفضل أو أحب إلى الله تعالى ؟ بأنه اختلاف جرى على حسب اختلاف الأحوال والأشخاص بدليل قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن عباس رضي الله عنهما : " حجة لمن لم يحج أفضل من أربعين غزوة ، وغزوة لمن حج أفضل من أربعين حجة " ويجوز أن يكون المراد من أفضل الأعمال أو من خيرها كذا أو كذا . انظر : شرح النووي على صحيح مسلم ٢ / ٧٧ ، ٧٨.

أقول : إن هذا الجمع لا يقدح في القول بتفاضل الأعمال في نفسها لو أننا أقصينا مراعاة الأحوال والأشخاص، وقومنا الأعمال بذاتها بعيدا عن متعلقاتها .

٧٥ روح المعاني للألوسي ١ / ٣٥٣ .

وجل مثلٌ لها من كل وجه ؛ فقد ناقضه صلى الله عليه وسلم في خبره[٧٦].

فالآية التي ذكروها تدل على خلاف ما ذهبوا إليه ، ولهذا جعلها القائلون بالتفضيل دليلا لهم كما رأينا .

ثالثا : قولهم إن المقصود بتفضيل شيء على شيء في القران الكريم أنه في موضعه له حسن ولطف ، وذاك في موضعه له حسن ولطف ، وهذا الحسن في موضعه أكمل من ذاك لو وضع في نفس الموضع قول شديد البعد عن ظاهر الأحاديث التي تنص على أفضلية سورة الفاتحة على سائر سور لقرآن الكريم رغم اختلاف المواضع ، وعلى أن آية الكرسي أعظم من سائر الآيات رغم اختلاف الموضوعات .

التوظيف الأمثل للأقوال الثلاثة :

رغم أن القول الثالث هو الأرجح عندي – من الناحية النظرية – لقوة دلائله ، ولتفنيد القائلين به لدلائل من منعوا التفضيل .

إلا أنني – من الناحية العملية – أرى ضرورة الاعتداد بالأقوال الثلاثة وعدم رد واحد منها ؛ لأننا يمكن أن نوظفها أمثل توظيف في نطاق تعامل الأمة مع القرآن الكريم ، بحيث نفعل كل قول منها في وقت معين ومع أناس محددين، ونفعل قولا غيره في وقت آخر مع أناس آخرين .

وبالتالي لا نحكم على قول من هذه الأقوال بأنه الراجح على الإطلاق ؛ لأنه يمكن أن يصبح مرجوحا في وقت معين بالنسبة لأناس محددين .

فعندما يختلف الناس في القرآن الكريم اختلافا يصل إلى حد المراء المؤدي إلى دفع بعضه ببعض بحيث يتطرق إليه قدح وطعن تكو حاجتنا ماسة إلى تفعيل القول الأول الذي يستحسن السكوت وعدم الخوض في مسألة تفضيل

---

٧٦ انظر : كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية ١٧ / ١٧١ ، ١٧٢ .

سورة على سورة أو آية على آية ، حتى لا نشرف على الهلاك الذي حذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم منه في قوله : " إنما هلك من كان قبلكم بالاختلاف في الكتاب "[٧٧] .

وهذا الهلاك متمثل في الكفر الذي يشرف المراء في القرآن بصاحبه عليه، كما قال صلى الله عليه وسلم : " المراء في القرآن كفر "[٧٨].

ولهذا أمر بالقيام عن القرآن عند الاختلاف فيه فقال : " اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فقوموا عنه "[٧٩].

والأمر بالقيام محمول عند العلماء على اختلاف لا يجوز أو اختلاف يوقع فيما لا يجوز ، كاختلاف يوقع في شك أو شبهة أو فتنة أو خصومة وشجار ونحو ذلك، وأما الاختلاف في استنباط فروع الدين منه ، ومناظرة أهل العلم في ذلك على سبيل الفائدة وإظهار الحق ؛ فليس منهيا عنه ، بل هو مأمور به وفضيلة ظاهرة أجمع المسلمون عليها من عهد الصحابة رضي الله عنهم إلى الآن[٨٠].

إذ من حق الناظر في القرآن الكريم بل من واجبه أن يجتهد في التوفيق بين آياته والجمع بين المختلفات منها ؛ لأن القرآن يصدق بعضه بعضا ، فإن أشكل عليه شيء من ذلك ولم يتيسر له التوفيق ؛ فليعتقد أنه من قلة علمه وقصور عقله، وليكله إلى عالمه ، وهو الله تعالى ثم رسوله صلى الله عليه وسلم.

---

٧٧ أخرجه مسلم في العلم ، باب النهي عن إتباع متشابه القرآن ٤ / ٢٠٥٣ (٢٦٦٦) .

٧٨ أخرجه أبو داود في كتاب السنة ، باب النهي عن الجدال في القرآن ٤ / ١٩٩ (٤٦٠٣) والنسائي في فضائل القرآن ، باب المراء في القرآن ٥ / ٣٣ (٨٠٩٣) وأحمد في المسند ٢ / ٣٠٠ .

٧٩ أخرجه البخاري في فضائل القرآن ، باب اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ٤/١٩٢٩ (٤٧٧٤) ومسلم في العلم، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن ٤/ ٢٠٥٣ (٢٦٦٧).

٨٠ انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ٢١٩، وفتح الباري لابن حجر ٩/ ١٠١ .

قال تعالى : (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) [٨١].

وعندما يتخذ بعض الناس التفاضل بين سور القرآن الكريم وآياته ذريعة لحفظ سور محددة وآيات معينة منه ، وكثرة ترديدها في كل صباح وليلة أو أسبوع أو مناسبة ، مع إهمال سائر السور والآيات التي لم يرد في شأنها ما يدل على فضلها بعينها إهمالا يصل إلى حد عدم قراءتها ولو مرة واحدة في العمر كله؛ فإن حاجتنا تكون ماسة إلى تفعيل القول الثاني الذي يرى عدم جواز تفضيل شيء على شيء في القرآن الكريم ؛ لأن الكل كلام الله عز وجل ، ولا ينبغي أن نفرق بين سورة وسورة أو آية وآية منه.

إن المتتبع لأحوال قطاع عريض من المسلمين يجد تركيزا منهم على قراءة سورة الفاتحة عند عقد العقود ، وسورة البقرة في ليلة الزفاف ، وسورة الكهف في يوم الجمعة ، وسورة يس عند الأموات ، والواقعة للوقاية من الفقر ، والملك لعذاب القبر، والإخلاص والمعوذتين قبل النوم ، وآية الكرسي في الصباح وفي المساء للوقاية من الشيطان ، وهذا أمر محمود .

لكن المشكلة تكمن في إهمالهم التام لقراءة السور والآيات التي تعنى ببيان أحكام الله تعالى وتشريعاته كسورة النساء والمائدة والنور والأحزاب ، وكأنهم يفرون من التبعات والتكاليف التي تلقيها هذه السور على عاتقهم ، ولهذا نرى بونا شاسعا بين واقعهم الحياتي وبين هذه الأحكام وتلك التشريعات .

وقد نتج عن ذلك قبول فئات من هذا القطاع لممثلي التيار الذي ينادي بإقصاء الأحكام والتشريعات الإسلامية عن حياة المسلمين ؛ لأنها أصلحت زمنا ولى ، ولم تعد صالحة للعصر الحديث .

يجب في هذه الحالة أن نقول لهؤلاء جميعا : اقرؤوا القرآن كله ؛ ليعرف

---

٨١ سورة النساء : ٥٩ .

المنادون بإقصاء الأحكام والتشريعات أن هذا يخل بإيمانهم ويخدش عقيدتهم مصداقا لقول الله عز وجل : (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون)[٨٢].

وليعلم من يقبلون بهم ويؤيدونهم أن دين الله عز وجل عقيدة وشريعة، إيمان وعمل منبثق من هذا الإيمان؛ لا من تصورات وأفكار وضعها أي إنسان.

قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) [٨٣].

وقال أيضا : (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون) [٨٤].

وعندما يهجر بعض المسلمين قراءة القرآن الكريم ؛ فإننا نطبق معهم قاعدة ما لا يدرك كله لا يترك جله بتفعيل القول الذي يرى جواز تفضيل سورة على سورة أو آية على آية ، مع العمل على تلافي الآثار السلبية الناجمة عن المواظبة على قراءة سور بعينها أو آيات بخصوصها من خلال القراءة أو الاستماع إلى سائر السور والآيات في أوقات مختلفة ، مستهدفين بذلك تحسين علاقتهم بها تدريجيا.

فإن تحسنت وصار لهم ورد يومي يختمون القرآن على إثره كل أسبوع أو شهر أو شهرين أو أكثر ؛ فإنه يحق لنا أيضا أن نذكرهم دائما بالسور والآيات التي وردت في فضلها نصوص شرعية ، بحيث يسارعون في الخيرات بمداومة

---

٨٢ سورة البقرة : ٨٥ .

٨٣ سورة النساء : ٦٥ .

٨٤ سورة المائدة : ٤٩ .

Scanned with CamScanner

قراءتها مداومة تؤدي إلى ترسيخ المعاني التي تضمنتها تلك السور والآيات في عقولهم وقلوبهم ، فضلاً عن تحصيلهم للثمرات المترتبة على هذه القراءة .

وهكذا يمكننا أن نوظف الأقوال الثلاثة أمثل توظيف في نطاق تعامل الأمة مع القرآن الكريم ، بحيث نفعل كل قول منها في وقت معين ومع أناس محددين ، ونفعل غيره في وقت آخر مع أناس آخرين ، ونتلافى بذلك الآثار السلبية الناجمة عن الترويج لقول واحد من أقوال العلماء الثلاثة في وقوع التفاضل بين سور القرآن الكريم وآياته .

خاتمة

يحسن بي وقد انتهيت من هذا البحث أن أذكر أهم نتائجه ، وهي على النحو الآتي :

أولا : اختلاف العلماء في وقوع التفاضل بين آيات القرآن الكريم وسوره نشأ عن الأحاديث الواردة في تفضيل شيء على شيء فيه ، وهذا يفيد أن النص الشرعي كان محورا تدور حوله أفكارهم ، ومركزا تنبثق منه قضاياهم ، وحري بالأمة أن تحذو حذو علمائها في ذلك .

ثانيا : سائر أقوال العلماء في وقوع التفاضل بين آيات القرآن الكريم وسوره تدل على أن غايتهم منها تعظيمه وإجلاله ، ولهذا لم نجد من أصحاب أي قول أدنى حرص على النيل من أصحاب قول آخر ، بل دارت المسألة في نطاق مناقشة الرأي دون قدح في قائليه ، وهذا أدب رفيع في الخلاف ينبغي تمثله في كل القضايا والمسائل الخلافية .

ثالثا : القول الثالث هو الأرجح – من الناحية النظرية – لقوة دلائله ، ولتفنيد القائلين به لدلائل من منعوا التفضيل .

غير أن الناحية العملية تستدعي الاعتداد بالأقوال الثلاثة ؛ لأننا يمكن أن نوظفها أمثل توظيف في نطاق تعامل الأمة مع القرآن الكريم ، بحيث نفعل كل قول منها في وقت معين ومع أناس محددين ، ونفعل غيره في وقت آخر مع أناس آخرين ، وبالتالي لا نحكم على قول من هذه الأقوال بأنه الراجح على الإطلاق ؛ لأنه يمكن أن يصبح مرجوحا في وقت معين بالنسبة لأناس محددين .

رابعا : تنزيل النص الشرعي على واقع الناس يقتضي فقه هذا الواقع ، بحيث تختار له أنسب الأقوال التي صدرت من العلماء في فهم هذا النص، مع التسليم لمن فقهوا واقعا مختلفا بحق اختيار قول آخر للعلماء يناسب هذا الواقع .

والله تعالى أعلم

Scanned with CamScanner

المراجع

القرآن الكريم

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، دار الفكر ١٤١٦هـ بيروت .
- أحكام القرآن للجصاص ، دار إحياء التراث ١٤٠٥ هـ بيروت .
- إرشاد العقل السليم لأبي السعود ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، بدون تاريخ .
- الاستذكار لابن عبد البر ، دار الكتب العلمية ٢٠٠٠ م بيروت .
- أضواء البيان للشنقيطي دار الفكر للطباعة ١٤١٥ هـ بيروت .
- البرهان في علوم القرآن للزركشي ، دار المعرفة ١٣٩١هـ بيروت .
- تحفة الأحوذي للمباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- تدريب الراوي للسيوطي ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، بدون تاريخ .
- تفسير البيضاوي ، دار الفكر ، بيروت ، بدون تاريخ .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، دار الفكر ، ١٤٠١هـ بيروت .
- التفسير الكبير للفخر الرازي ، دار الكتب العلمية ١٤٢١هـ بيروت.
- التمهيد لابن عبد البر ، وزارة عموم الأوقاف ١٣٨٧ هـ المغرب .
- جامع البيان للطبري ، دار الفكر ١٤٠٥هـ بيروت .
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، دار الشعب، القاهرة ، بدون تاريخ.
- جواهر القرآن للغزالي ، دار إحياء العلوم ١٩٨٥ م بيروت .
- الديباج على مسلم للسيوطي ، دار ابن عفان ١٩٩٦ م السعودية .
- روح المعاني للألوسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بدون تاريخ.
- سنن الترمذي ، دار إحياء التراث ، بيروت ، بدون تاريخ .

Scanned with CamScanner

- سنن أبي داود ، دار الفكر ، بيروت ، بدون تاريخ .
- سنن النسائي ، دار الكتب العلمية ١٩٩١ م بيروت .
- شرح النووي على صحيح مسلم ، دار إحياء التراث ١٣٩٢ هـ بيروت .
- صحيح البخاري ، دار ابن كثير ١٩٨٧ م بيروت .
- صحيح مسلم ، دار إحياء التراث ، بيروت ، بدون تاريخ .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر، دار المعرفة ، بيروت، بدون تاريخ .
- فهم القرآن للحارث المحاسبي ، دار الكندي ١٣٩٨ هـ بيروت .
- فيض القدير لعبد الرؤوف المناوي ، المكتبة التجارية ١٣٥٦ هـ مصر .
- كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في التفسير، مكتبة ابن تيمية ، الطبعة الثانية.
- الكشاف للزمخشري ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، بدون تاريخ.
- المحرر الوجيز لابن عطية ، دار الكتب العلمية ١٤١٣هـ بيروت.
- مدارج السالكين لابن القيم، دار الكتاب العربي ١٩٧٣ م بيروت .
- المستدرك على الصحيحين للحاكم ، دار الكتب العلمية ١٤١١هـ بيروت.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، مؤسسة قرطبة ، القاهرة ، بدون تاريخ.